المقدمة

لم تكن اهتماماتي بتاريخ منطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء وليدة اليوم، بل هى مخاض يعود إلى أكثر من سبع عشرة سنة منذ أن كنت طالباً بالدراسات العليا، بجامعة الفاتح، حين درست مادة عن غرب أفريقيا وعلاقاتها مع الشمال الأفريقي والشرق العربي، وماكنا نعانيه من ندرة فى المعلومات، فتأكد لى أن هذه المنطقة لم تدرس من قبل. . فبدأت أتلمس طريقي نحوها شيئا فشيئا، وسرعان ما أخذ تاريخها يسيطر على جل تفكيري واهتماماتي، فقمت بزيارات متكررة لها، فتوثقت علاقاتي مع شيوخ قبائلهم وعلمائهم وشبابهم، وأصبحت تمثل لي هاجسًا، أتفاعل مع أحداثه تفاعلي مع نفسي ووجدت أن هذه المنطقة تمثل عمقاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً لم يجد اهتماماً من قبل الكتَّاب العرب والأفارقة على السواء، وأن جل الذين كتبوا في هذا المجال أوروبيون، لم تتوفر فيهم نزاهة الباحثين، فكتبوا من وجهة نظر استعمارية محظة، ذلك بأن عملوا على تشويه ومسخ الشخصية الأفريقية، وإظهارها بمظهر التخلف والانحطاط، وبأن العرب هم السبب المباشر في تأخير وتخلف الأفارقة في الوقت، الذي أظهروا فيه دورهم الحضارى بكتابات مزيفة، لاتمت للحقيقة بصلة بأن زيفوا الوثائق والمخطوطات والنقوش بما يتماشى وتطلعاتهم الاستعمارية ولم يقفوا عند هذا الحد، بل أظهروا رغبتهم الجامحة فى إعادة استعمار المنطقة بالسيطرة على مقدرات شعوبها بتقديم تقارير لبلدانهم عن اقتصادها وخيراتها باستغلال كنوز أراضيها من ذهب ويورانيوم ونحاس ونفط ومياه وأخشاب وفواكه وطاقات بشرية، كل هذه الأمور مجتمعة كانت دافعاً لي على فضح مخططات الاستعمار، وإظهار الحقيقة على أكمل وجهها، وتبنى إعادة كتابة تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء وبرؤية جديدة، تعتمد على المنهج العلمى التحليلى النقدي

الاستنباطي، معتمداً على تراثها الذي يضيع يوماً بعد يوم من مخطوطات ووثائق ونقوش .

وبذلك ركزت على التخصص في تاريخ هذه المنطقة فحضَّرت فيها درجتي الماجستير ودكتوراه الدولة، فقمت بدراسات ميدانية للمنطقة، جمعت خلالها كمـًّا هائلاً من المخطوطات والوثائق، ووقفت على مدنها وقراها وآثارها ومعالمها التاريخية، وكتبت بعدها هذه الدراسة التي هى جزء من رسالة الدكتوراه وغيرها من الدراسات الأخرى التي تم نشرها، ومنها ماهو قيد الطبع، ومنها ماهو قيد الإنجاز . . وفى الحقيقة أن الدارس للتاريخ السياسى والاقتصادى لمنطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء يجد نفسه أمام زخم سياسى، عبرت عنه الكيانات وأنظمة الحكم التى سادت فى المنطقة بتنظيمها الوزارى إلى وزارات، والوزارات إلى دواويين منظمة إلى حد كبير، وتقسيمها الإدارى إلى ولايات وأقاليم ومدن، وقرى، وادشار .

ومن بين هذه الكيانات والأنظمة، إمبراطورية «غانا الوثنية»، التي تأسست في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي من قبل قبائل زنجية، التي حكمت من طرف برقاويين قدموا من ليبيا، فتولوا تسيير البلاد بتوليهم أرفع المناصب الوزارية في الإمبراطورية فقد كونوا عاصمة لهذه الإمبراطورية؛ عرفت بـ «كمبي صالح» أي مدينة صالح ، ومعنى ذلك أن العروبة أسبق من الإسلام في تلك المنطقة .

وهذه المنطقة دخلها الإسلام عن طريق الدعاة والفاتحين والتجار، وكان رائد الفاتحين عقبة بن نافع الفهري، ورائد الدعاة في هذه المنطقة علي بن يخلف النفوسي الليبي، الذي أسلم على يديه ملك غانا الوثقي «برو مند انه» وأطلق على نفسه «المسلماني»، وأسلم عدد من الرعية .

وقد شهدت البلاد حالة من الاستقرار الأمنى، انعكس على الحياة الاقتصادية، فقصدها التجار من الشمال الأفريقي وخاصة ليبيا والمغرب، وتونس فوفدوا من طرابلس وغدامس ومرزق وسلجماسة ومراكش وفاس والقيروان، عبر الصحراء الكبرى، التي لم تكن في يوم من الأيام حاجزاً بين أبناء الأمة

الواحدة، بل كانت جسر عبور وتلاحم حضاري، لقد حمل هؤلاء التجار التمر والملح وبضائع البحر المتوسط إلى تلك المناطق وكانوا يعودون بالذهب، حتى أن التجار المغاربة صكوا عملة مغربية ذهبية بالذهب الذي جلبوه من أفريقيا فيما وراء الصحراء.

إضافة إلى ذلك، شهدت المنطقة ازدهاراً في الزراعة، عبرت عنه كثرة مزروعاتها والذي سأتحدث عنها في هذه الدراسة .

واستمرت هذه الإمبراطورية اكثر من قرنين تناطح الزمن، إلى أن أسدل عليها الستار، بعد أن تعرضت لقبائل الصوصو القوية المراس، ففي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي كان القدر ينتظر ميلاد أول مملكة إسلامية، ألا وهي مملكة مالي الإسلامية، التي قامت بها قبائل الماندنجو المسلمة القاطنة في مقاطعة كانجاب، والتي كان لها الدورالكبير والمؤثر في نشر الإسلام بأدغال افريقيا، فعملت على توسيع رقعة أراضيها وخاصة في عهد المصلح الملك منساموسي اليمني ــ الذي قدم أجداده عبر الهجرات العربية الأولى من اليمن ـ حتى وصلت حدودها إلى تخوم المغرب الأقصى وغرباً إلى المحيط الأطلسي وشرقاً إلى حدود برنو .

كما ارتبطت بعلاقات سياسية واقتصادية وحضارية مع الشمال الأفريقي، واستمر هذا الزخم إلى عام 1464 إفرنجي، عندما بدأ الوهن والضعف ينخر أوصالها .

فتزعمت قيادة المنطقة امبراطورية سنغاي على يد الملك سني علي بن ضياء الطرابلسي، إلا أن أهم ما يميز هذه الفترة اتساع نطاق سنغاي وثقل قبائلها البرابيش والطوارق والفلان والهوسا في المنطقة، والذي ستجدونه موثقًا في هذه الدراسة. والحقيقة التي يجب أن تبرز هي أن العرب جزء من أفريقيا، منذ أن كانت وكانوا وجوداً متكاملاً جغرافياً وبشرياً، فهما يجتمعان في الزمان والمكان، ولم يدخل العرب أفريقيا غازيين مستعمرين، وإنما تفاعلوا وامتزجوا وكونوا ممالك وإمبراطوريات مشتركة وصنعوا فكراً مشتركاً، وقد تبنت اللغات الأفريقية الحرف العربي، وأنتجت به في مختلف المعارف إنتاجاً عالي المستوى. هذا ولم يدخل الإسلام وينتشر فى أفريقيا فيما وراء الصحراء تحت القهر والتكبيل، ولا تحت

إغراء الخمور الأوروبية، ولكنه امتد وترعرع بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة في إخاء ومودة.

وقد ظلت اللغة العربية وهي أكبر اللغات الأفريقية، وأقدمها لغة العلم والثقافة لأكثر من ثمانية قرون حتى مطلع هذا القرن .

وهكذا.. فإن العلاقات الأفريقية العربية بقيت تقارع كل عمليات التزييف والتشويه لسبب واحد، هو أنها حقيقة تاريخية سطرتها الشعوب لاينسخها التجاهل، ولايغيرها التأويل ولايبدلها التفسير.

والجدير بالملاحظة أني قد انتهجت في هذا الدراسة المنهج التحليلي النقدي الاستنباطي وقسمتها إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة .

الفصل الأول : التطور التاريخي للمنطقة : تناولت فيه تحديد المنطقة جغرافياً وتضاريسها، والممالك التي تعاقبت عليها غانا ومالي .

الفصل الثاني : الوضع السياسي في منطقة سنغاي فتحدثت عن القوى السياسية الأولى والانتماء السكاني ومراحل تكوينها، كما تناولت الحضور المغربي في المنطقة، وحالة المنطقة عند مجيئه، وتطرقت إلى قبائل الطوارق والفلان والبرابيش باعتبارها قوة سياسية في المنطقة.

الفصل الثالث : البنية الاقتصادية للمنطقة.

تعرضت فيه إلى الزراعة والثروة الحيوانية، والسمكية والمعادن والصناعة والحركة التجارية.

أما الخاتمة :

فقد تناولت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها.

والجدير بالملاحظة أني أدرجت كافة المصادر والمراجع، التي اعتمدت عليها في إنجاز الدكتوراه من مخطوط ومطبوع، حتى التي لم تدخل في نطاق هذه الدراسة، وذلك لعدة أسباب، منها وأهمها:

أن هذه الدراسة هي رسالة دكتوراه قمت بتجزئتها إلى ثلاثة أجزاء فنشرت الجزء الأول على هيئة كتاب مستقل، والذي هو بين أيديكم؛ حتى لايحرم القارئ من الإطلاع على أكبر قدر ممكن من المصادر، التي لم تكن معروفة من قبل وأخص بذلك المخطوطات، رأيت أن أدرجها في هذه الدراسة، على أمل أن تخرج الدراسة الثانية، وهي التي تحمل عنوان :

«التاريخ الحضاري لمنطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر، وإلى بداية الثامن عشر، والدراسة الثالثة، والتي تحمل مختارات من وثائق تاريخ أفريقيا، فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر وإلى بداية القرن الثامن عشر .

وفي الختام يغمرني الأمل في أن تساهم هذه الدراسة في التعريف بتاريخ المنطقة تعريفاً من شأنه أن يقرب إلى الدارسين والباحثين وغيرهم تاريخها، ويعكس رؤية واضحة عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وحسبي أني كشفت معالم الطريق لمزيد من البحث والدراسة، ولا يسعنى إلا أن اتقدم بخالص شكري وعظيم تقديرى وامتناني إلى أستاذي الفاضل الدكتور محمد رزوق الذي منحنى كل جهده ووقته فى الإشراف على أطروحة دكتوراه الدولة. وليغفر لي الأخوة الدارسون والباحثون في تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء، إذا كنت قد أخطأت أو نسيت، والله أسأل أن يعينني بنعمه على ذكره وأداء شكره، وأن يجنبني بفضله الخلل والزلل في القول والعمل، إنه سميع مجيب وهو حسبي ونعم الوكيل .

الهادي المبروك الدالي

طرابلس 1/10/1998 أفرنجي